الفصل الثامن

الفصل الثامن

فى التعددية والتنوع والاختلاف

لكل دين من الأديان.. أو فلسفة من الفلسفات.. أو نسق من الأفكار، فلسفته فى رؤية الكون، التى تحدد مكانة الإنسان فى هذا الوجود... وعلاقته بالموجودات.

وإذا كان الإسلام- ككل الديانات السماوية – يرى الله – سبحانه وتعالى -: المطلق، واجب الوجود، والخالق لكل الموجودات.

فإنه يرى الإنسان خليفة لله فى الأرض، حاملاً لأمانة إقامة العمران، حتى تأخذ الأرض زخرفها وزينتها.. وحتى تتهذب النفس الإنسانية وترتقى وتسعد، عندما تتوازن علاقاتها مع الغرائز والملكات والموجودات..

كذلك، يرى الإسلام فى الذات الإلهية: المطلق المفارق لسائر أنواع وألوان المخلوقات.. فهو – سبحانه – ليس كمثله شىء.. وكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك!

وفى موضوعنا – موضوع (التعددية.. والتنوع والاختلاف فى إطار الوحدة) يرى الإسلام فى هذا الوجود: إلها، انفرد وينفرد بالوحداية، والوحدانية، التى لا تعرف أى لون من ألوان التعدد أو الازدواج أو التركيب.

وموجودات ومخلوقات ومحدثات، تقوم جميعها على التعدد والازدواج، والتراكيب والتساند والتسخير والارتقاق. فالتعدية فى كل الموجودات – الحية والجامدة... الإنسانية والنباتية والحيوانية... العلوية والسفلية.. وكذلك فى عالم الأفكار والفلسفات والمذاهب والتوجهات... وأيضا فى الألوان والأجناس والألسنة واللغات والقوميات.

كل هذه العوالم، يراها الإسلام قائمة على سنة التعددية، وقانون التنوع، وقاعدة الاختلاف.

ليس باعتبار هذه التعددية، وذلك التنوع مجرد اختيار بشرى، أو حق من حقوق الإنسان، وإنما باعتبارها القانون الحاكم لوجود الموجودات.. وسنة من سنن الله فى سائر المخلوقات، لا تبديل لها ولا تحويل.

****

ولأن الإسلام هو دين الوسطية الجامعة... التى لا تعرف الثنائيات المتناقضة-ثنائيات: "الدين.. والدنيا".. أو: " الدين.. والدولة ". أو: "الدنيا... والآخرة".. أو: "الفرد.. والمجمـ.وع " أو: "الذات.. والآخر". أو "الحرية.. والمسئولية".

لأن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، تجمع من أطراف وأقطاب هذه الثنائيات عناصر الحق والعدل، فتؤلف منها موقفًا وسطًا جامعا.. متوازنًا.. ومتميزا.. وجديدا فلقد التزم الإسلام – بهذه الوسطية الجامعة فى التعددية مذهبا متميزا، رفض فيه وبـ.ه غلـ.و الإفـ.راط وغلـ.و التفريط.

فهو، مع التعددية فى كل عوالم المخلوقات، لا يرى الوحداية والأحدية إلا فى الـ.ذات الإلهية وحدها.. وهو – أيضا – لا يطلق للتعددية العنان، الذى يجعلها تشرذما وقطيعـ.ة بـ.ين أجزاء الظواهر والموجودات...

وإنما يراها: تنوعا واختلافًا وتميزا فى إطـ.ار الوحـ.دة الجامعـ.ة للتنـ.وع والتمـ.ايز والاختلاف..

فالوحدة – فى أى ظاهرة من الظواهر – تعنى التعددية والتنوع والاختلاف والتمـ.ايز فى إطارها.. ولابد لهذا لتنوع والاختلاف والتمايز من وشائج جامعة، وعدسة لامة، تؤلف بين التنوع، وتجمع بين المختلف، وتوجـ.د الأرض المـ.شتركة بـ.ين المختلفتـ.ين.. المتميـ.زين.. المتنوعين.. المتعددين.

****

لقد خلق الله – سبحانه وتعالى – البشر جمعيا من نفس واحدة.. ثم جعل كل فرد مـ.ن أفراد هذه الإنسانية عالما قائما بذاته.. فيهم – وهو الجزم الصغير – انطوى العالم الأكبر!.

ففى إطار وحدة الإنسانية- المتحدة فى أصل الخلقة.. وفى الإنسانية.. وفى الكرامـ.ة والتكريم.. وفى الحقوق.. وفى التكليف.. وفى الحساب.. وفى الجزاء.. فى إطار هذه الوحدة تتمايز وتتنوع هذه الإنسانية الواحدة إلى: شعوب وقبائل وأمم وأفراد.. وإلى ألوان وأجنـ.اس والسنة ولغات وقوميات وحضارات.. وإلى ملل ونحل ومذاهب وديانات وفلسفات وثقافات...

فلا غلو فى التعددية والتنوع، يقطع روابط الوحدة، ويدخل بها فى نطاق العنـ.صرية والتعصب، وإنكار العلاقات بالآخرين.. ولا غلو فى عوامل الوحدة، ينكـ.ر أسـ.باب التنـ.وع والتميز والاختلاف...

وبسبب من هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، فى رؤية علاقة الوحدة بالتعددية.. والواحدية بالتنوع.. والأحدية بالاختلاف.. ينكر الإسلام "نزعة المركزية المفرطة"، التى تريد العالم نمطًا واحدا، والإنسانية قالبا واحدا، منكرة على الآخرين حق التمايز والاختلاف.

"فالمركزية الدينية".. التى تريد العالم دينًا واحدا، ينكرها الإسلام، عندما يرى فى تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله فى الاجتماع الديني، لا تبدل لها ولا تحويل ﴿**لِكُلٍّ جعلْنَا منْكُم شرعةً ومنْهاجاً ولَو شَاء اللَّه لَجعلَكُم أُمةً واحدةً ولَكن ليبلُوكُم فِى مَا آتَاكُم فَاستَبِقُوا الْخَيرات إِلَى اللَّه مرجعكُم جميعاً فَينَبئُكُم بِما كُنتُم فِيه تَخْتَلفُون**﴾ (١)..

﴿ **ولَو شَاء ربك لَجعلَ النَّاس أُمةً واحِدةً ولا يزالُون مخْتَلفِين (١١٨) إِلاَّ من رحِم ربك ولِذَلك خَلَقَهم** ﴾ (٢).

فهو – سبحانه– قد خلقهم للتنوع والاختلاف.. لكنه يريد لكل الملل والشرائع والديانات وحدة جامعة لتنوعها، ورابطة ضابطة لاختلافها.. وحدة فى: توحيد الخالق المعبود.. وفى الإيمان بالغيب.. وفى العمل الصالح.. فهذه هى أصول الدين الإلهى الواحد، التى اتفقت فيها وعليها كل الشرائع والنبوات والرسالات، من آدم.. إلى إبراهيم... إلى موسى.. إلى عيس.. إلى محمد – عليهم جميعا الصلاة والسلام–..

****

وإنكار الإسلام "للمركزية الدينية"، إيمانًا منه بتعددية الشرائع الدينية، بتعدد أمم الرسالات السماوية.. يعنى – أيضا – رفضه "للمركزية القانونية".. التى تريد العالم كله خاضعا لمنظومة قانونية واحدة، حتى لتثير الاعتراضات، وتكيل الاتهامات ضد فلسفات التشريع فى المنظومات القانونية الأخرى، بل وتجرح أحكام القضاء التى تصدر انطلاقا من فلسفات التشريع التى لا تنتمى إليها.

ودعاة هذه "المركزية القانونية" فى دوائر استقر رأيهم – فى مؤتمراتهم العالمية – منذ عقد الثلاثينات من هذا القرن العشرين – على اعتماد منظمات قانونية ثلاث.. يجرى الرجوع إليها، والاستفادة منها، والمقارنة فيما بينها.. وهى القانون الرومانى... واللاتينى. الشريعة الإسلامية.

فدعوى "المركزية القانونية"، يرفضها – أيضا – علماء القانون..

---

(1) سورة المائدة : الآية ٤٨.

(2) سورة هود : الآيتان ١١٨ ، ١١٩

والإسلام ينكر " **المركزية الحضارية**".. التى تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك سبل الصراع – صراع الحضارات – لقسر العالم على نمط حضارى واحد.. لأن الإسلام يريد العالم "منتدى حضارات" متعددة.. ومتميزة.

لكنه، لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب الشوفينى بالمركزية الحضارية القسرية.. وإنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند فى كل ما هو مشترك إنسانى عام.

ففى العلوم الطبيعية – علوم المادة.. الدقيقة.. والمحايدة.. وفى علوم تمدن الواقع – التى تحقق زينة الأرض، ورخاء البشر، وسلام الإنسانية، والحفاظ على البيئة – ميادين واسعة للوحدة، والتفاعل، والتساند بين كل الحضارات...

وفى الثقافات والفلسفات والمواريث الثقافية، ومنظومات القيم، والهويات الحضارية والقومية، ميادين للتنوع والتمايز، فى إطار المشترك الإنسانى العام بين مختلف الحضارات..

والإسلام ينكر **مركزية العرق والجنس واللون**".. التى أثمرت العنصر العرقية، حتى جعلت فى العالم طبقة للألوان والأجناس، تركت آثارها الكريهة حتى فى المعابد والعبادات، فضلاً عن الأندية والمساكن والمدارس والمصانع، ناهيك عن القوانين والحقوق والواجبات والامتيازات!.

بل، ورأينا من يدعى أنه " من شعب الله المختار" بحكم الولادة من رحم بعينه، حتى ولو كان بان غير شرعى.. بل وحتى ولو كان ملحدا؟!.

ينكر الإسلام هذه " المركزية العرقية"، عندما تكون مركزية الجنس الأبيض.. أو الأسود.. أو الأصفر.. أى أى عرق من الأعراق.. فاختلاف الألوان –فى إطار الإنسانية الواحدة.. وتساويها جميعا –فى هذا الإطار الإنسانى الواحد – هو سنة من سنن الله، وآية من آيات الخالق لكل هذه الألوان والأعراق والأجناس.. ﴿ **ومِن آياتِهِ خَلْقُ السمواتِ والأَرضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوانِكُم إِن فِى ذَلِك لآيات لِلْعالمِين** ﴾ (١).

والإسلام ينكر "**المركزية اللغوية** ".. التى تريد العالم لغة واحدة، فتنكر على الأمم والقوميات حقها فى تعدد الألسنة واللغات.. بل وينكر هذه "المركزية اللغوية" فى إطار الدولة الواحدة، إذل هى حرمت الأقليات اللغوية من حقها فى تعلم لغاتها القومية، كى تحافظ على مواريثها الثقافية.

وفى ذات الوقت، ينكر الإسلام نحو التعددية اللغوية أو الدينية إلى قطيعة، تفصم – بالشيفونية القومية أو التعصب الدينى – عرى التفاعل والترابط بين الدوائر اللغوية والطوائف

---

(1) سورة الروم: الآية ٢٢

الدينية فى الأمة الواحدة أو الدولة الواحدة.. فالأمة: وحدة تضم تنوعا فى الملـ.ـل والأعـ.ـراق واللغات.. والوسطية الإسلامية تحمى وحدة الأمة من أن نفتتها التمايزات اللغوية أو التعدديـ.ـة الدينية... كمل تحمى هذه الوسطية التنوع اللغوى والدينى من أن تقهره وحدة الأمة أو الدولة.

يريد الإسلام – بمنهاجه فى التعددية – للعالم الذى نعـ.ـيش فيـ.ـه: أن تعتنـ.ـى ثقافاتـ.ـه المتعددة بالتعددية اللغوية – والتعددية فى المواريث الثقافية والفكرية – لأممه وقومياته.. لأن اختلاف وتعدد الألسنة واللغات وهو آية من آيات الله فى المخلوقات...

****

والإسلام ينكر "**المركزية الاقتصادية**" التى تـ.ـسخر المنظمـ.ـات الاقتـ.ـصادية الدوليـ.ـة لمصلحة حضارة الأقوياء ضد مصالح حضارات المستضعفين.

المركزية، التى تتحول فيها "عالمية التجارة" إلى "اجتيـ.ـاح" للـ.ـصناعات والتجـ.ـارات الوطنية فى الدول المستقلة حديثًا، ذات البنى الاقتصادية الضعيفة أو الهشة.

المركزية، التى تجعل ٢٠% من أبناء حضارة بعينها يملكون ويستهلكون ٨٠% مـ.ـن ثروات العالم المعاصر.. فيتركز الغنى فى كفه، ويتركز الفقر فى الأخرى!... ويشقى الجميع –بالترف والتخمة تند قوم.. وبالفاقة عند الآخرين!.

وفى ذات الوقت، فإن الإسلام لا ينكر التفاوت بين البشر، فى الغنى، وفـ.ـى الأمـ.ـوال والثروات.. وإنما يريد أن يحكم هذا التفاوت بإطار التكافل، الذى يجعل العالم بمثابـ.ـة الجـ.ـسد الواحد.. تتنوع أعضاؤه –فى الكفاءة.. والأهمية.. والحجم.. والاحتياجات – مع تكافلها جميعا فى تحقيق حد الكفاية لكل إنسان.

****

والإسلام ينكر "**المركزية فى الـ.ـسلطة**".. داخل الدولة، تلك التى تفرض وحدة الـ.ـرأى والاتجاه والموقف والاجتهاد، قاهرة الأمة على حزب واحد.. ورأى واحد.. وحاكم فرد..

ينكر الإسلام هذه "المركزية السلطوية"، التى تبعث "الفرعونية" من جديد.

وفى ذات الوقت، لا يريد الإسلام للتعددية –فى المجتمع – غلو التـ.ـشرذم والقطيعـ.ـة والتفتيت بين تيارات الأمة وطبقاتها وأحزابها ومدارسـ.ـها الفكريـ.ـة.. وإنمـ.ـا يريـ.ـد: تنـ.ـوع الاجتهادات والتنظيمات فى الفروع والمتغيرات والمناهج والآليات، وذلك فى إطـ.ـار ثوابـ.ـت الأمة، ومقومات المجتمع، ومكونات الهوية، ومعالم المشروع الحضارى للأمة...

ولأن هذه وسطية الإسلام – الجامعة بين عناصر الحق والعدل من أقطاب الثنائيات.. وهى الوسطية التى جعلت من التعددية تنوعا فى إطار الوحـدة.. وجلـت الوحـدة ترعـى وتحتضن التمايز والاختلاف.

ولأن الإسلام ليس "اليوتوبيا" الحالمة أحلام فلاسفة "المدن الفاضلة" التى عزت علـى التحقيق منذ أقدم العصور – وإنما هو الدين الجامع بين "المثـال" الملهـم، وبـين "الواقعيـة" الساعية أبدا إلى الاقتراب من "المثال".. فلقـد أدرك الإسـلام أن حيـاة الأمـم والـشعوب والمجتمعات والدول، لابد وأن تشهد التناقضات.. وأن تمتزج فيها نـوازع الخيـر والـشر.. ولإيجاب والسلب.. والاستعلاء والاستضعاف.. والأثرة والإيثار.. إلخ.. إلخ..

فكانت دعوة الإسلام – بواسطته – إلى حل التناقضات بين الأفراد الطبقـات والأمـم والدول والحضارات بنفس منهاجه المتميز فى التعددية...فهو يرفض "الصراع" سـبيلاً لحـل التناقضات، لأن " الصراع" يفضى إلى إفناء طرف للطرف الآخر، وفى ذلـك قـضاء علـى التعددية، عندما ينفرد المنتصر – الذى صرع خصمه – بالـساحة والميـدان، ويـرث كـل الإمكانات..

والإسلام – أيضا – عندما يرفض الصراع، لا يرضى بالسكون والاستـسلام، لأنـه يؤدى إلى تقليد الضعفاء للأقوياء، وتشبه المستـضعفين بالمـستكبرين، وتبعيـة المهـزومين للمنتصرين.. وهو يفضى – أيضا إل زوال التنوع وذبول التعددية..

يرفض الإسلام ذلك.. ويدعو – بدلا من الصراع المدمر.. والسكون المقلـد – إلـى "التدافع الحضارى"".. الذى هو "حراك" وسط بين "دمار الصراع" و " موات السكون والتقليد".

فالتناقضات، يجب أن تحل بالحراك الاجتماعى والسياسى والحـضاري، الـذى هـو تنافس وتسابق بين الأفراد والطبقات والأحزاب والأمم والدول والحضارات.. تنافس، لا ترتفع حرارته إلى "حدة" الصراع، الذى يصرع فيه طرف الطرف الآخر، فيلغى تعدديـة الفرقـاء والأطراف والأقطاب...

وأيضا، لا تنطفئ حرارته، فيتحول إلى سكون، هو – فى الحقيقة – استسلام الضعفاء للأقوياء، وتقليد المهزومين للمنتصرين..

هكذا يرى الإسلام قضية التعددية:

- قانونًا إلهياً.. فى كل عوالم المخلوقات.. وسنة من سنن الله التى لا تبـديل لها ولا تحويل..
- ويراه وسطًا.. عدلاً.. متوازنًا.. جامعة للتنـوع والاخـتلاف فـى إطـار الوحدة..

فالوحدة تعنى: التركب من الأجزاء المتنوعة..

والتنوع لابد أن يكون فى إطار الوحدة الجامعة للفرقاء المتمايزين..

- وعموم هذا القانون – فى قضية التعددية – يعنى شموله لكل عوالم الخلق.

من الذرة إلى العالم.. من الفرد إلى الإنسانية.. من الأحياء إلى الجماد إلى النبـ.ـات.. من الملل والشرائع إلى الفلسفات والأفكار والأحزاب..

وصدق الله العظيم: ﴿ **يا أَيها النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلْنَـ.ـاكُم شُـ.ـعوباً وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد اللَّهِ أَتْقَاكُم** ﴾ [1].

﴿ **لِكُلٍّ جعلْنَا منْكُم شِرعةً ومِنْهاجاً ولَو شَاء اللَّه لَجعلَكُم أُمةً واحِدةً** ﴾ [2].

﴿ **ولَو شَاء ربك لَجعلَ النَّاس أُمةً واحِدةً ولا يزالُون مخْتَلِفِين إِلاَّ من رحِم ربُّك ولذَلِك خَلَقَهم**﴾ [3].

* * * *

فهى التعددية فى إطار الوحدة..

وهى الوحدة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف..

إنها الجدلية الوسطية، التى تمثل – فى واقعنا المعاصر – طوق نجاة الإنـ.ـسانية مـ.ـن علوى الإفراط والتفريط..

---

(1) سورة الحجرات : الآية ١٣

(2) سورة المائدة : ٤٨.

(3) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.